دلالة التناص في خطابات العلامة ابن باديس التعليمية

الدكتورة نادية توهامي

جامعة الأمير عبد القادر

ملخص:

يعدُّ التناص آلية من آليات تأويل الخطاب وذلك باتخاذ نص كقرينة لتفسير نص آخر، وهذا ما استخدمه العلامة عبد الحميد بن باديس في خطاباته بكثرة؛ لرفع الغموض وتقريب المعنى إلى ذهن المتلقي.

لذا يتناول هذا البحث دلالة التناص في الخطاب التعليمي عند العلامة عبد الحميد ابن باديس.

والهدف من تناول هذا الموضوع هو الرغبة في الكشف عن مصادر التناص وآليات توظيفه خطابات العلامة عبد الحميد بن باديس.

وقد توصل البحث في الأخير إلى تفاعل خطابات ابن باديس لكثير من النصوص السابقة، خاصة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؛ لما لهما من قوة التأثير في النفوس.

كلمات مفتاحية: آليات التناص- الخطاب التعليمي- ابن باديس- الدلالة.

Abstract:

The Intertextuality is a mechanism of interpretation of a communication by means of a text as a presumption of interpretation of another text, This is what Abdelhamid Ben Badis used in his many speeches; To raise the ambiguity and bring the meaning to mind...

This research therefore addresses the connotation of the educational discourse at Abdul Hamid Ibn Badis.

The aim of this topic is the desire to disclose the sources of redundancy and the mechanisms for employing it.

The research finally found the interaction of Ibn Badis' speeches with many previous texts, especially the Holy Koran and the Holy Prophet ' because of their power to influence the souls.

Keywords: mechanisms of intertextuality - educational discourse - Ibn Badis – significance.

مقدمة:

يعدّ التناص ظاهرة لغوية أدبية ؛ ظهرت بظهور المناهج النقدية الحديثة؛ وذلك على يد العالم الروسي ميخائيل باختين **M.Bakhtine** في كتابه "الماركسية وفلسفة اللغة" عام 1929م، والذي أَطلق عليه مصطلح الحوارية أو تعددية الأصوات، ثم طوّرت الناقدة الفرنسية جوليا كرستيفا **Julia Kristiva** في كتابها "علم النص" المصطلح إلى التناص والذي يُقصد به تلك العلاقات التي تربُط نصاً بنصوصٍ أخرى، سواء أكان ذلك ربطا مباشراً أو ضمنياً مقصودا أو غير مقصود.

وإن المتتبع للمؤلفات النقدية والبلاغية العربية القديمة يجد أن العرب، قد تفطنوا وأدركوا تداخلَ النصوص، وأخذَ بعضها من بعض، سواء أكان ذلك في الشعر أو النثر، إلا أنهم لم يستعملوا هذا المصطلح بل استعملوا مصطلحاتٍ أخرى غيرَها، ففي البلاغة مثلا: نجد مصطلح التضمين والتلميح والإشارة والاقتباس إلى غير ذلك؛ أما في النقد؛ فنجد مصطلح المناقضة والسرقة والمعارضة وغير ذلك....) وهذه المصطلحات تقترب قليلاً أو كثيراً من مفهوم التناص.

ومن المسلَم به أنّ المؤلِفين من العلماء والأدباء يأخذون مادتَهم الفكرية من النصوص السابقة، خاصة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لما يحمله كل منهما من ألفاظ قوية تؤثر في نفس المتلقي.

ومن العلماء الجزائريين نجد "العلامة عبد الحميد بن باديس " الذي تزخُر خطاباتُه بالتناص خاصة التناص القرآني، وهذا من أجل إصلاح وتوجيه وتوعية المجتمع الجزائري.

والأسئلة التي تُطرَح في هذا المقام هي:

*ما المقصود بالتناص؟

* وما الآليات التي تم بها توظيف التناص في خطاب العلامة عبد الحميد بن باديس لتوعية المجتمع الجزائري؟

وما المصادر التي اعتمدها ابن باديس بكثرة في تناصاته؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، ارتأيتُ أن أسلك العرض الوصفي التحليلي للموضوع مستنطقاً العناصر الآتية:

النص في اللغة: أجمعت المعاجم اللغوية على أنّ مادة (ن ص ص) تدل على الرفع والإظهار، والوضوح والثبات، كما تدل على الاستقصاء والإحكام.[1]

و(النَّص) صِيغَةُ الْكَلَام الْأَصْلِيَّة الَّتِي وَردت من الْمُؤلف، وَمَا لَا يحْتَمل إِلَّا معنى وَاحِدًا أَو لَا يحْتَملُ التَّأْوِيلَ وَمِنْه قَوْلهُم لَا اجْتِهَاد مَعَ النَّص، ج (نُصُوص) وعِنْد الْأُصُولِيِّينَ الْكتاب وَالسّنة وَمن الشَّيْء منتهاه ومبلغ أقصاه يُقَال بلغ الشَّيْء نَصه وبلغنا من الْأَمر نَصه شدته.[2]

النص في الاصطلاح:

اختلفت تعريفات النص بين الباحثين وتباينت حسب اختلاف مشاربهم وتباين منطلقاتهم الفلسفية واللسانية، مما أثَّر على مناهجهم في دراسة النص؛ ولعل أشمل تعريفات النص وأكثرها تداولا بين الباحثين هو تعريف دي بوجراند ودريسلر، فالنص – حسب تصورهما-" حدث تواصلي، يلزم لكونه نصا أن تتوفر له سبعة معايير للنصية مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلف واحد من هذه المعايير."[3]

وتتمثل هذه المعايير في: الاتساق، والانسجام، والقصدية، والمقبولية، والمقامية، والإعلامية والتناص.

يعدُّ هذا التعريف للنص من أشمل التعريفات؛ لأنّه يُراعى الجوانب الداخلية للنص التي تتمثل في ترابطه الشكلي والمعنوي.

ويعدّ التناص من المعايير السبعة التي تحدث عنها كلّ من روبرت دي بوجراند ودريسلر الذي لا يمكن بحال من الأحوال تجاوزه في كون النص نصا.

مفهوم التناص:

التناص في اللغة:

التناص مصدر من الفعل تناصَّ أو تناصص بفك التضعيف، وقد وردت في المعاجم اللغوية بعدة معاني منها: الاتصال والازدحام؛ ففي تاج العروس وردت كلمة التناص بمعنى الاتصال " يقال: هذه الفَلاةُ تُناصِي أرضَ كذا:

---

[1] – ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت، ج7، ص98، مادة (نصص).

[2] – إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 1425هـ-2004م، ص926، مادة (نصص).

[3] – ينظر: روبرت دو بوكراند وولفغانغ دريسلر، مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، دار الكتاب، بيروت، ط1، 1413هـ- 1992م، ص11.

أي تتَّصلُ بها"[1] وقد وردت في معجم الوسيط بمعنى الازدحام؛ تناصَّ القومُ: ازدحموا.[2] وهذا المعنى يقتربُ من التناص بمفهومه الحديث الذي يشير إلى تداخل النصوص فيما بينها.

التناص في الاصطلاح:

يعدُّ التناصُ من المصطلحات التي ظهرت مع جُوليا كَرستيفَا، التي صرّحتْ بأنّ النص لا يأتي من فراغ، بل يتشكلُ من نصوص أخرى سابقة، حيث تقول: التناص "هو عمليةُ نقلٍ لتعبيرات سابقة أو متزامنة في النص الجديد"[3].

وتتمثل آليات التناص في الاستشهاد والسرقة والتلميح والمعارضة (المقلد المعجب) والمحاكاة، والاقتباس، والتضمين، والتوارد وغيرها؛ فالتناص ضرورة حتمية على كلّ منتج أو مؤلف.

ولنجاح العملية التواصلية، فقد عدَّ علماء النص التناصَ ضروريا، ونلمس ذلك من خلال التعريف الذي قدّمه كلّ من "روبرت دي بوجراند"، وزميله "دريسلر" في ضوء عملية الإنتاج والتلقي؛ حيث يرى أن التناص هو الترابط بين إنتاج نص بعينه أو قبوله، والمعارف التي يملكها مشاركو التواصل عن نصوص أخرى، وهذا التعيين الجديد يولي التواصل الأولوية في تعيين هذا المفهوم.[4]

وعرّفه جيرار جينيتGenand Genette بأنّه:" تلاقح النصوص عبر المحاورة والاستلهام والاستنساخ بطريقة واعية أو غير مقصودة.[5] وهذا ما ذهب إليه كل من جوليا كرستيفا وباختين.

لم يتفق الدارسون العرب المحدثون على ترجمة هذا المصطلح، حيث نجد عددا من الترجمات منها: التناصية، وإن كان التناص أكثر شيوعا، النصوصية والمتناص، والنصية، والنص الغائب وآخرون سموّه التداخل النصي.[6] "وكلّ هذه التَرْجَمات تُبرزُ معنى التفاعل، والتعالق، والالتقاء، والتداخل بين نص حاضر ونصوص أخرى مغيّبة سبقتهُ،

---

[1] – الزبيدي، السيد المرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق ضاحي عبد الباقي، الكويت،ط1، 1422هـ-2001م، ج40، ص93.

[2] – إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ص926.

[3] – جوليا كرستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، ط2، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب،1997م، ص23.

[4] – عزة شبل محمد، علم لغة النص (النظرية والتطبيق)، ط2، مكتبة الآداب، القاهرة،، 2009م، ص 74. وينظر: روبرت دو بوغراند وولفغانغ دريسلر، مدخل إلى علم لغة النص، ص09.

[5] – ينظر: يحي بن مخلوف، التناص، مقاربة معرفية في ماهيته وأنواعه وأنماطه (حسان بن ثابت نمودجا)، دار قانة، باتنة، 2008م، ص20.

[6] – ينظر: محمد عزام، النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م، ص39.

واستفاد منها هذا النص، ولذلك عرّفه أحدُ الباحثين العرب بقوله: "إنّه يمثّلُ عمليةَ استبدالٍ من نصوص أخرى"[1] وهذا ما يؤكده محمد مفتاح بقوله "إن التناص هو تعالقُ نصوص مع نص حدَثَ بكيفيات مختلفة"[2] أي أنّ النصوص السابقة تُشكِل نقطةَ انطلاقٍ لتكوينِ نصوصٍ لاحقةٍ؛ ثم تقوم هذه الأخيرةُ بدورها بالتأسيس والبناء لنصوصٍ أخرى تأتي بعدَها وهكذا.

وتعتمد دلالةُ التناص على إلغاء الحدود بين النص والنصوص الأخرى، فيُصبِح النصُ المركزي المتحدّثُ عنه غنيا بالمعاني والدلالات[3].

ومن خلال هذه التعاريف السابقة نستنتج أنّ التناصَ مصطلحٌ يُقصَد به وجودُ تشابهٍ أو قواسمُ مشتركةٍ بين نص وآخر، أو بين أكثر من نص، ويَدخُلُ التناصُ ضمنَ تفاعلِ النصوصِ مع بعضها بعضا.

وفي الأخير يُمكننا القولُ أن التناصَ بمعناهُ الدقيقِ، لا يُقصد به رصُ النصوصِ مع بعضها البعض، وإنما هو إعادةُ إحياءِ هذه النصوصِ ولكن بحلةٍ جديدةٍ ومغايرةٍ.

حياة ابن باديس

ولد ابن باديس بمدينة قسنطينة سنة 1889م، وتوفي سنة1940م، وهو واحد من رواد الحركة الإصلاحية والعلمية بالجزائر، لقب بألقاب عديدة منها المصلح الثوري، والشاعر الصحفي، والعالم المفسر، والمعلم المربي، والكاتب السياسي.

وقد نشأ ابن باديس في بيئة علمية، فقد حفظ القرآن وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ثم تتلمذ على الشيخ حمدان لونيسي، فكان من أوائل الشيوخ الذين كان لهم أثر طيب في اتجاهه الديني، وعُرفت أسرته بالعلم والثراء والجاه والوصل التاريخي.[4]

حاول ابن باديس مواجهة الاستعمار لكنه لم يستطع لوحده؛ فاضطر للهجرة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وقد التقى بشيخه حمدان بن لونيسي الذي نصحه بالعودة إلى الجزائر من أجل خدمة

---

[1]– صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، 1996م، ص295. نقلا عن

[2] – محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1985م، ص119.

[3] – دلالة التناص في القرآن الكريم (دراسة تطبيقية)، مج1، ص 162 – جامع الكتب الإسلامية https://ketabonline.com/ar/books/91847/read?page=8&part=1#p-91847-8-9

[4]– مريم سيد مبارك وفضيل هومه: رجال لهم تاريخ متبوع بنساء لهن تاريخ، دار المعرفة، الجزائر، 2010م، ص 48.

الإسلام والعربية، والتقى بصديقيه الطيب العقبي والبشير الإبراهيمي، فكان اللقاء نواة لتكوين الجمعية وبداية للمشروع الإصلاحي بالرجوع إلى الجزائر لحاجتها إليه، وفي 1913 استقر في قسنطينة وشرع في تجسيد المشروع الإصلاحي التربوي ، فدرس الصغار والكبار[1] وقد ترك ابن باديس آثارا عديدة نُشرت على شكل مقالات وخطب ومحاضرات وقصائد شعرية في صحف ومجلات من بينها الشهاب، والبصائر، والمنتقد، والنجاح، والشريعة المطهرة، والسنة المحمدية.

وبناءً على هذا الأقوال السابقة؛ فإن النص الواحد يستوعب كثيرا من النصوص الأخرى، ليتناص معها، مثل النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، والنصوص الشعرية والأمثال والحكم والأقوال المأثورة وغيرها.

ونحاول هنا كشف مصادر التناص وآليات توظيفها في خطابات العلامة ابن باديس التعليمية والإصلاحية.

وهذا النوع من التناص يقوم على استحضار العلامة ابن باديس لبعض آيات القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو من الشعر أو من الأمثال والحكم وتضمينِها في خطاباته التعليمية.

ويتبين ذلك من خلال ما سنعرضه من أمثلة ونماذج مختارة لبعض خُطَب ابن باديس، ونعتمد في ذلك على أقواله المأثورة ومواقفه المشهورة عنه فيما يسمى ب" باديسيات" في المجلد الأول، جامع الكتب الإسلامية.

دافع الإمام عبد الحميد بن باديس بشدة عن الإسلام باعتباره أحد مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي ترتكز على ثلاث مرتكزات وهي العربية لغتنا، والجزائر وطننا، والإسلام ديننا، فقد جعل من هذه المرتكزات أهدافَ نضالهِ وجسد ذلك في خِطَاباته التي دافع فيها عن الدين الإسلامي.

أولا: التناص مع القرآن الكريم:

والتناص القرآني يعني أن يقتبس المؤلف بعض الآيات من القرآن الكريم ويستشهد بها حتى ولو بكلمة واحدة. فالكلمة وحدها لا تشيرُ إلى شيء، وإنما يستخدمُها المؤلِفُ بأسلوبٍ يقتفي أثرَ النظم القرآني.

وهذا ما جسده العلامة الإصلاحي عبد الحميد بن باديس في خطاباته حيث وظف الآية القرآنية، للدفاع عن قضايا وطنه وأمته، فقد وجد في القرآن الكريم خيرَ مُعِين، ليصُوغَ ويُرتِبَ أَفْكَارَهُ بِأُسْلُوبٍ جَمِيلٍ لتؤثر في نفس المتلقي تأثيرا كبيرا.

وقد استعار ابن باديس بعض المفردات والتراكيب من القرآن الكريم، كما هي دون إضافة جديدة في المعنى، ليُوَظفَها في سياق خطاباته، فتجعل تراكيبَه قوية، ودلالات ألفاظه واضحة وعميقة، ومن ذلك:

[1]- المرجع نفسه، ص49-50.

قول ابن باديس في خطابه تحت عنوان "ما جمعتْه يدُ الله لا تفرقُه يدُ الشيطان": "إننا نتّحدُ لننفعَ أنفسَنا وننفع .. غيرَنا، ومَعاذَ الله والإسلام أن نتّحد على باطلٍ أو نتعاونَ على إثم أو عدوان."[1]

ففي هذا القول يدعو ابن باديس إلى ضرورة الوحدة مُعرضاً بذلك دعاة التفريق؛ لأنّ في الاتحاد قوة، وهو لا يَقصد بذلك الاتحاد على الباطل، ثم يستحضر ابن باديس قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة[02]، لما في التعاون على الإثم والعدوان من تضييع الحقوق وذهابها لغير أهلها وهي دليلٌ على ضَعفِ الإيمان وقِلةِ المروءة وتُسببُ الخراب والدمار في المجتمع.

وهنا يتماثل خطاب ابن باديس والنص القرآني لفظاً ومعنى، فابن باديس نهل من الأصل القرآني (أخذ العقل من النقل) كما يقول الأصوليون، فالتناص هنا تناص مباشر.

ومن أقوال ابن باديس: الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكَر هما مرجعُ الفضائلِ الإسلاميّة ومنبَعُها."[2] ففي بداية هذا القول يظهر لنا تناص خارجي يتمثلُ في اقتباس ابن باديس لقوله تعالى:﴿وَلْتَكُنْ مِنكم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وينْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ وأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾. آل عمران [104].

ففي هذا القول يشير ابن باديس إلى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنها ضرورة دينية عند المسلمين.

يقول ابن باديس أيضا: "الأمّةُ التي صبغَها الإسلامُ، وهو صِبغةُ اللهِ، وأنجبتها العربُ، وهي أمّةُ التّاريخ، وأنبتتها الجزائرُ، وهي العاتيةُ على الرومان والواندال، لا تستطيعُ ولن تستطيعَ أن تمسخَها الأيامُ، ونوائبُ الأيام"[3].

ففي بداية هذا القول يظهر لنا تناص يتمثل في استعارة ابن باديس كلمة " صِبْغَةَ اللَّهِ "من قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ البقرة[138] ويوظفها في سياق خطابه من غير تغيير في المعنى، ليُدليَ بها على أنّ الأمة الإسلامية العربية وتمثلها الجزائر لها تاريخ عظيم منذ عهد الرومان والواندال ولا أحد يستطيع أن يطْمِسَ معالمِها وتاريخَها على مرِّ الأيام.

---

[1] – باديسيات .. أقوال مأثورة ومواقف مشهورة عن الإمام عبد الحميد ابن باديس – المجلد 1 – الصفحة 19 – جامع الكتب الإسلامية-https://ketabonline.com/ar/books/97733/read?page=19&part=1#p-97733-19-27

[2] – باديسيات .. أقوال مأثورة ومواقف مشهورة عن الإمام عبد الحميد ابن باديس – المجلد 1 – الصفحة 8 – جامع الكتب الإسلامية-https://ketabonline.com/ar/books/97733/read?page=8&part=1#p-97733-8-25

[3] – باديسيات .. أقوال مأثورة ومواقف مشهورة عن الإمام عبد الحميد ابن باديس – المجلد 1 – الصفحة 16 – جامع الكتب الإسلامية -https://ketabonline.com/ar/books/97733/read?page=16&part=1#p-97733-16-32

وفي ذلك يقول أبو جعفر: ويعني سبحانه وتعالى ب " الصِبغة " صِبغةَ الإسلامِ. وذلك أنّ النصارى إذا أرادت أن تنصِّر أطفالها، جعلتهم في ماءٍ لهم تَزعمُ أنّ ذلك لها تقديسٌ، بمنزلة غُسل الجنابة لأهل الإسلام، وأنه صِبغة لهم في النصرانية.

يتقاطع النص القرآني مع قول ابن باديس في كلمة" صبغة الله"، وكلاهما ينهلان من دلالة واحدة.(أي لها نفس المعنى)

يقول ابن باديس عن العلم وآدابه والحقيقة ومتعلقاتها: "يَعرُف ذلك الفقهاءُ القرآنيون السُّنّيّون، واسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون"[1] فالتناص هنا واضح

وهذا القول يتناص مع قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ النحل[43]، فابن باديس اقتبس قوله تعالى:" فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ" وضمّنها في خطابه بلفظه وبمعناه دون أن يعزو القول إلى الله سبحانه وتعالى، أي دون ذكره " قال الله تعالى". وهو تناص مباشر لفظا ومعنى بين النص القرآني وخطاب ابن باديس.

يقول ابن باديس: "إنّ الإسلامَ الذي جعلَ الأمّةَ العربيّة الواسِطةَ الحيّةَ بين القديم والحديث رمى بأشعّتِه السّاطعة بواسطةِ العرب على أوروبا فأخرجَها من الظلمات إلى النّور"[2].

فالتناص هنا واضح، ففي هذا القول يتناص ابن باديس مع قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ البقرة[257].

يبين لنا ابن باديس ويوضح بأنَّ الدين الإسلامي هو الذي أخرج أوروبا من الظلمات إلى النور بواسطة العرب وهذا شرف لهم.

يقول ابن باديس:" والقرآنُ –يا سادة – معلمٌ أخلاقيٌ عظيم، فقد تضمنت آياتُه ذِكرَ أُصول الخير وما يُنّميها،

---

[1] – باديسيات .. أقوال مأثورة ومواقف مشهورة عن الإمام عبد الحميد ابن باديس – المجلد 1 – الصفحة 27 – جامع الكتب الإسلامية-https://ketabonline.com/ar/books/97733/read?page=27&part=1#p-97733-27-33

[2] – باديسيات .. أقوال مأثورة ومواقف مشهورة عن الإمام عبد الحميد ابن باديس – المجلد 1 – الصفحة 9 – جامع الكتب الإسلامية.-https://ketabonline.com/ar/books/97733/read?page=9&part=1#p-97733-9-26

وذِكرَ أصول الشر وما يُميتها ويَنحيها، وكلُ من يزُكي النفسَ وما يُدسّيها، ببيان منافع طريقه تلك لتركب، ومضار طرائق هذه لتجتنب"[1]

نلاحظ في هذه الفقرة وجود تناص في قول ابن باديس" وكل من يزكي النفس وما يدسيها" مع قوله تعالى: ﴿نَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ الشمس[7-10].

ففي هذا الخطاب يحاول ابن باديس أن يبين للسامع ما الدين من أثر كبير في نفوس المتلقين، فجاءت معانيه تعبيرية موحية توقظ القارئ وترشده إلى فعل ما يُرضي الله وترك المعاصي وتجنُب كلِ ما يؤدي به إلى طريق غير مستقيم..والله سبحانه وتعالى يقسمُ في سورة الشمس بعدد من مخلوقاته الدالة على عظمته أنّ أصلَ الفلاحِ في تزكية النفس وأساس الخيبة في تدسيتها.

قول ابن باديس: "إنّ أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلامُ منذ بضعة عشر قرنا، ثمّ دأبت تلك القرونُ تَمزِجُ ما بينهم في الشّدة والرّخاء، وتؤلّف بينهم في العسر واليسر، وتوحّدهم في السّرّاء والضّرّاء"[2] فالتناص هنا واضح، فقد ضمّن خطابه ألفاظاً من القرآن الكريم (السراء والضراء، العسر، اليسر) حيث يستوحي في ذلك قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ آل عمران[134] الذين ينفقون أموالهم في اليسر والعسر، والذين يمسكون ما في أنفسهم من الغيظ بالصبر، وإذا قَدَروا عَفَوا عمَّن ظلمهم. وهذا هو الإحسان الذي يحب الله أصحابه.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾. الشرح[05] أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر، ثم أكد هذا الخبر .

فقد استخدم ابن باديس هذه الألفاظ استخداما مباشراً، دون إجراء أيِ تغيير أو تبديل في اللفظ ومعناه.

ومما سبق يمكننا القول أن الأثر القرآني في خطابات ابن باديس ذو صلة حميمة بأثر الفكر القومي والوطني بعمقه الإسلامي؛ لاعتبارات أساسية وهي أن العربية والدين الإسلامي لديه وجهان لعملة واحدة هي أنّ الجزائر وطنه بهويتها الحضارية عربية وإسلامية.

ثانيا: التناص مع الحديث النبوي الشريف

[1] – ابن باديس، آثاره، ج4، ص48.

[2] – باديسيات .. أقوال مأثورة ومواقف مشهورة عن الإمام عبد الحميد ابن باديس – المجلد 1 – الصفحة 19 – جامع الكتب الإسلامية-https://ketabonline.com/ar/books/97733/read?page=19&part=1#p-97733 19-1

يأتي الحديث النبوي الشريف في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم من حيث فصاحة اللغة، وبلاغة القول" إنّه كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو شرح وتفصيل لما جاء موجزا أو مجملا في القرآن الكريم"[1]

استعان ابن باديس بسنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ويتجلى ذلك في بعض الأحاديث النبوية الشريفة في خطاباته التعليمية والإصلاحية، حيث نجد التفاعل بين قوله، وبين النص الحديثي مثال ذلك:

قوله في خطابه عن إصلاح التعليم: حيث جعل من إصلاح التعليم أساس النهضة الإصلاحية المنشودة، قال "لن يَصلُحَ المسلمون حتى يَصلُح علماؤهم، فإنما العلماءُ من الأمة بمثابة القلب، إذا صَلَح صلَح الجسد كله، وإذا فسَد فسَد الجسدُ كلُه".[2]

في هذا القول يتناص ابن باديس مع حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول: (ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القَلْبُ)[3] رواه البخاري.

حيثُ يلتقي سياق النصين في بيان أنّ القلبَ أساسُ جميع البدايات عند الإنسان، فهو مضغة صغيرة تشكل إحدى أهم المعجزات في الإنسان، وبصلاحه تستقيم حياة الشخص، وبفساده يفسَد كلُ شيء.

وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به، وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أهلَ جمودٍ في العلم وابتداعٍ في العمل، فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين، فلنُصلِح علماءهم أولا.

يقول ابن باديس: "لا يؤمن أحدٌ حتى يكون اللهُ ورسولُه أحبَ إليه مما سواهما".[4]

فالتناص هنا واضح، فهذا القول يتناص ابن باديس مع حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول:

عن أنس: أن رسول الله □ قال: **لا يُؤْمِنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولدِهِ ، ووالدِهِ ، والناسِ أجمعينَ**

ففي هذا الحديث يخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن إيمان المسلم لا يَكتَمِلُ إلا إذا قدّم حبَ الرسولِ عليه الصلاة والسلام على حب ولده ووالده والناس أجمعين؛ وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

من أقوال ابن باديس أيضا: "لعنة الله على الدّنيا إذا لم يكن فيها دين."[1]

---

[1] – عمر فروج، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1981، ج1، ص 241.

[2] – آثار ابن باديس، ج4، ص78.

[3] – رواه النعمان بن بشير وأخرجه البخاري(52) ومسلم(1599).

[4] – باديسيات، ص65.

في هذا القول يتناص ابن باديس مع حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول:(الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ)[2].

أي أنّ هذه الدنيا ملعونة، إذا لم يذكر فيها الله؛ وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

يقول ابن باديس: "إنّ الإسلام لا يقدّس الرّجالَ وإنّما يقدّس الأعمالَ"[3]

في هذا القول يتناص ابن باديس مع حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول:

جاء في الحديث الصحيح: أنَّ النبي □ قال :إِنَّ اللهَ تعالى لَا ينظرُ إلى صُوَرِكُمْ، ولا إلى أَمْوالِكُمْ، ولكنْ إِنَّما ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم"[4]

إنّ الله لا ينظر إلى جمال أشكالكم أو كثرة أموالكم، وإنما ينظر إلى أعمالكم الصالحة وإيمانكم وتقواكم التي منبعها القلب.

يقول ابن باديس: "ألا ما في سبيل الله ما لقيتم، ألا في سبيل الله ما أنتم لاقون".[5]

في هذا القول يتناص ابن باديس مع حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول: (هلْ أنتِ إِلَّا إِصبَعٌ دَميتِ وفي سبيلِ اللهِ ما لقيتُ).[6] "أنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ في بَعْضِ المَشَاهِدِ وقدْ دَمِيَتْ إصْبَعُهُ، فَقالَ: هلْ أَنْتِ إِلَّا إصْبَعٌ دَمِيتِ، وفي سَبيلِ اللَّهِ ما لَقِيتِ[7].

---

[1] – باديسيات .. أقوال مأثورة ومواقف مشهورة عن الإمام عبد الحميد ابن باديس – المجلد 1 – الصفحة 10 – جامع الكتب الإسلامية-https://ketabonline.com/ar/books/97733/read?page=10&part=1#p-97733 10-35

[2] – فلفظ هذا الحديث في سنن الترمذي عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم .والمقصود من الحديث أنها مبعدة عن الله والدار الآخرة لذلك ذمت.

[3] – باديسيات .. أقوال مأثورة ومواقف مشهورة عن الإمام عبد الحميد ابن باديس – المجلد 1 – الصفحة 12 – جامع الكتب الإسلامية.-https://ketabonline.com/ar/books/97733/read?page=12&part=1#p-97733 12-30

[4] – رواه أبو هريرة في صحيح الجامع، الرقم1862.

[5] – باديسيات .. أقوال مأثورة ومواقف مشهورة عن الإمام عبد الحميد ابن باديس – المجلد 1 – الصفحة 23 – جامع الكتب الإسلامية-https://ketabonline.com/ar/books/97733/read?page=23&part=1#p-97733 23-26

[6] – رواه جندب في صحيح البخاري، الرقم7023.

[7] – رواه جندب بن عبد الله في صحيح البخاري، الرقم 2802.

ويقول ابن باديس: "حيّ على الصّلاح والإصلاح أيّها المؤمنون، وحيّ على الفلاح وخير العمل أيّها المصلحون"[1]

وهذا القول يتناص طبعا مع صيغة آذان الصلاة (فابن باديس يدعو المؤمنين إلى الصلاح والإصلاح كما يدعو المصلحين إلى الفلاح وعمل الخير.) حيث استعار ابن باديس لفظة" حي على الفلاح" ليوظفها في خطابه..... هذا الأذان الصحيح هو الذي علمه النبي أمته، وكان يؤذن به بلال بين يديه حتى توفي عليه الصلاة والسلام، وكان يؤذن به المؤذنون في حياته في مكة والمدينة وغيرهما، وهو الأذان المعروف الآن، وهو خمسة عشر جملة: الله أكبر.. الله أكبر، الله أكبر.. الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

ثالثا: التناص مع الشعر وهو قليل:

استفاد ابن باديس من المرجعيات الشعرية القديمة في إنتاج نصه النثري الجديد، فمثلا:

يقول ابن باديس حول الرسالة الرائدة للمسجد في مجال التعليم: "المسجدُ والتّعليمُ صنوانٌ في الإسلام، فكما لا مسجدَ بدون صلاة كذلك لا مسجدَ بدون تعليم، لا إسلام بدون تعليم."[2]

فهذا القول يتناص مع قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الرعد[04].

وكما يتناص هذا القول أيضا مع الشعر القائل:.

قال الشاعر[3]:

الحِلْمُ والعِلْم خلَّتَا كرمٍ للمرءِ زينٌ إذا هُما اجتَمَعَا

صِنْوانِ لا يَسْتَتِمُّ حسنُهما إلا بجمعٍ لذا وذاكَ معَا

---

[1] – باديسيات .. أقوال مأثورة ومواقف مشهورة عن الإمام عبد الحميد ابن باديس – المجلد 1 – الصفحة 13 – جامع الكتب الإسلامية-https://ketabonline.com/ar/books/97733/read?page=13&part=1#p-97733 13-24

[2] – باديسيات .. أقوال مأثورة ومواقف مشهورة عن الإمام عبد الحميد ابن باديس– المجلد 1 – الصفحة 28– جامع الكتب الإسلامية1-28-https://ketabonline.com/ar/books/97733/read?page=28&part=1#p-97733

[3] – ابن قتيبة، كتاب عيون الأخبار، ج2، ص137.

رابعا: التناص مع الأمثال والحكم:

تُعدُّ الأمثال والحِكم موروثا ثقافيا تختزنُه ذاكرة الأفرادِ يتداوَلُونه فيما بينهم شفاهة وكتابةً، والناس تحب المثل وتتأثر به أكثر من الصور المباشرة في التعبير؛ لأنّ فيه جمالا فنيا زائدا، فهو أبقى من الشعر وأرق من الخطابة ولم يَسِرْ شيءٌ سيرَه.

وقد اشتملت خطابات ابن باديس على أمثال عدة، تميزت بالإيجاز والوضوح تارة وبالطول تارة أخرى، وهذا يتماشى مع الهدف الأسمى لرسالته إلى الشعب الجزائري المسلم.

يقول ابن باديس: "الحقيقة بنت البحث "[1] وهي تتناصى مع المثل السائر "الحقيقةُ بنتُ البحث والمناقشة" وهي كلمةٌ موجزةٌ ومثلٌ سائرٌ، يهدفُ إلى أوضحِ الحقائقِ وأنصعِها ويُفيدُ أنّ الوقوفَ على الحقيقةِ وإماطةِ السَترِ عن وجهها وليدُ النقاشِ العلميِ ووليدُ المحادثةِ وهذا مما لا يَرتابُ فيه أحدٌ ويُدركُه كلُ من له حظٌ من الفكرِ والنظرِ[2].

ويقول ابن باديس: "ليت شعري ماذا تخشى الحكومات الاستعمارية من أمثالنا؟

أتخشى أن نقول: إنّ أعمالها الشاهدة المتكررة أغنت والله عن كل قول حتى لم تدع لقائل ما يقول؟"[3].

نلاحظ أنّ ابن باديس – والله أعلم- استحضر معنى المثل القائل: "**قَطَعَت جَهِيزَةُ قَولَ كُلّ خَطِيبِ**" وضمنها في سياق خطابه إثراءً له وتعزيزاً لموضوعه.

والمراد من هذا المثل، أنه يَضرِب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بحماقة يأتي بها.

وأيضا قوله: " الخير في الوسط" [4]مستوحاة من الحكمة القائلة " خير الأمور أوسطها" أي أنّ الوسط هو أن تبذل جهدك بلا إفراط على حساب الحقوق الأخرى ولا تفريط.

---

[1] – باديسيات .. أقوال مأثورة ومواقف مشهورة عن الإمام عبد الحميد ابن باديس – المجلد 1 – الصفحة 30 – جامع الكتب الإسلامية-https://ketabonline.com/ar/books/97733/read?page=30&part=1#p-97733-30-4

[2] – مفاهيم القرآن، ج2، ص281

[3] – باديسيات .. أقوال مأثورة ومواقف مشهورة عن الإمام عبد الحميد ابن باديس – المجلد 1 – الصفحة 15 – جامع الكتب الإسلامية.-https://ketabonline.com/ar/books/97733/read?page=15&part=1#p-97733-15-16

[4] – باديسيات .. أقوال مأثورة ومواقف مشهورة عن الإمام عبد الحميد ابن باديس – المجلد 1 – الصفحة 36 – جامع الكتب الإسلامية22-https://ketabonline.com/ar/books/97733/read?page=36&part=1#p-97733-36

خامسا: خاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى أن:

للتناص دوراً فعالاً في خطابات ابن باديس، فمن خلالها تمكن من خلق معاني جديدة وذلك بالاستعانة بالقرآن والسنة النبوية إضافة إلى الشعر والأقوال المأثورة والحكم والأمثال.

تُظهر الدراسة لخطابات ابن باديس تفاعلها مع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة؛ لأنهما الأكثر حضورا في خطاباته الإصلاحية لأنهما؛ يمنحان النصَ شيئا من القداسة والدلالة مؤازرة بالتضمين والتلميح.

.....

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 1425هـ- 2004م.

2- باديسيات .. أقوال مأثورة ومواقف مشهورة عن الإمام عبد الحميد ابن باديس، جامع الكتب الإسلامية.

3- جوليا كرستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، ط2، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب،1997م.

4- روبرت دو بوكراند وولفغانغ دريسلر، مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد، دار الكتاب، بيروت، ط1، 1413هـ- 1992م.

5- الزبيدي، السيد المرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق ضاحي عبد الباقي، الكويت،ط1، 1422هـ-2001م.

6- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، 1996م.

7- عزة شبل محمد، علم لغة النص (النظرية والتطبيق)، ط2، مكتبة الآداب، القاهرة،، 2009م.

8- عمر فروج، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1981.

9- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.

10- محمد عزام، النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م.

11- مريم سيد مبارك وفضيل هومه: رجال لهم تاريخ متبوع بنساء لهن تاريخ، دار المعرفة، الجزائر، 2010م.

12- يحي بن مخلوف، التناص، مقاربة معرفية في ماهيته وأنواعه وأنماطه (حسان بن ثابت نمودجا)، دار قانة، باتنة، 2008م.